من الأدب النسوى :

الغزل فى شعر المرأة

للشيخ محمد رجب البيومى

— ٢ —

سنتكلم اليوم عن الغزل السافر ونعنى به ما قالته المرأة ، لتذيع غرامها على رءوس الأشهاد ، فينقله عنها البعيد والقريب ، فهى إذن لا تخشى ملامة أو مسبة ، بل تقدم جريئة على تحمّل ما يتهددها فى موقفها الجرىء .

ونعلن بادىء ذى بدء أننا ان نتعرض إلى غزل الجوارى فيما نحن بصدده من الحديث ، لأننا نبحث عن النسيب الصادق الذى يضطرم بالعاطفة المشبوبة ، ويتأجج باللوعة المشتعلة ، وجل ما بأيدينا من غزل هؤلاء لا يهدف لغير الإغواء والتغرير ، بل كثيراً ما يهبط إلى مستوى لا يرضى عنه خلق نبيل ، حتى ليجوز لنا أن نشبههن بمن ترى من ساقطات الممثلات ، حيث يشغلن الصحف الخليعة بالحديث عن رنين القبلات ، وحرارة المناق ، وما يقصدن — علم الله — غير العاقبة الذميمة والخداع الريب .

على أنك لا ترى فى شعر الجوارى مواربة أو كناية ، بل تجد نفسك أمام صراحة فاضحة ، ومنطق مكشوف ، كأن تقول إحداهن وهو أهون ما يمكننا أن نستشهد به :

إنى لأرجو أن تكون معانقى فتبيت منى فوق ثدى ناهد
وأراك بين خلاخلى ودمالجى وأراك دون مراحلى ومجاسدى

وأنا لا أنكر أن هذا تصوير صادق لما تنشده الجارية من أمل لديد ، فهو من هذه الناحية غزل يرتكز على الإحساس والشعور ، ولكن أدعو الشاعرة أن تبرز عاطفتها تلك ، فى سياق فنى ، يعتمد على التشبيه البارع ، والرقة المتسلسلة حتى تعارب نارها برونق الأسلوب ، فينسى قسوة الفكرة ومرارة الهدف ، وأصدق مثال لذلك قول حفصة بنت الحاج القرطبية :

أزورك أم تزور فإن قلبى إلى ما تشتهى أبداً يميل
فتقرى مورد عذب زلال وفرع ذؤابتى ظل ظليل
وقد أملت أن تظما وتضحى إذا وافى إليك بى المقيل
تفضل بالجواب فما جميل سكوتك عن بثينة يا جميل

فواضح جداً أن هدف الشاعرة الأولى هو بعينه هدف الشاعرة الثانية ، ولكن سياق حفصة جيل فاتن ، ولا غرو فهو طراز أندلسى أخذ جماله من عصره ، واستمد رقته من أهله فجاء صافياً كمرآة النهر الوديع .

ولابد أن يعلم القارىء أن التصريح فى نسيب المرأة كان فى مجموعه أقل من التلميح . وقد قرأت فى هذه الأيام أكثر ما روى لحواء من رائق التشبيب فلم أجد التصريح إلا فى حالات خاصة تحف من حدته ، وتشفع لقائلته أنهن شفاعة ، وهى فى جملتها لا تخرج عن حالات ثلاث :

فالحالة الأولى — وهى الجديرة بالإشفاق — تكون غالباً عند ما تفقد المرأة صوابها الراشد ، وفكرها المتيقظ ، فتندفع فى تيار الحب أعنف اندفاع وأقساه ، ولا تعود تفكر فى غير الشخصية المسيطرة على منافذ إحساسها ، القابضة على زمام فؤادها ، وما ظنك بمن ترسل أشعارها الذائبة ناطقة بجنونها الشقى ، غير عابئة بما يلقاه بها الأقربون ، من صنوف الإيذاء والتعذيب كشقراء بنت الحباب ، فقد قاست فى غرامها الطائش ما تقشعر لهوله الأبدان ، وطالما انهال عليها والدها بالسياط المحرقة تشوى الإهاب ، وتمزق الأعضاء ، وهى بعدُ لا تنسى فى جحيمها المشتعل حبيبها يحيى بن حمزة بل تهتف :

أالضرب فى يحيى وبينى وبينه مهامه لو سارت بها الريح كلت
ألا ليت يحيى يوم عيهم زارنا وإن نهلت منا السياط وعلت

وكأنى بوالدها وقد رحمها بعض الشىء فبعث إليها صواحبها لائمات عاذلات ، راجياً أن يثوب رشادها العازب إلى وكره ، فتنسى ما تهذر به للغادى والرائح ، ولكن أمل الحباب يتطفىء خائباً حين يجد ابنته تصيح فى آذان اللائمات :

سأرعى ليحيى الحب ما هبت الصبا وإن قطعوا فى ذاك عمدا لسانيا
فقد شف قلبى بعد طول تجلدى أحاديث من يحيى نسيب النواصيا

وهناك من المدنفات من لا تفرق بين النافع والضار ، فهى إذ تصطلى بجحيم الشوق اللافح ، لا تجد من تطلعه على خبيئة سرها غير والدها العنيف ؛ مع أن الأب — لوعقلت الفتاة — أول من

ينبغي أن يكتم عنه هذا النبأ المزعج ، وخاصة إذا كان من قساة البدو ، وجفاة الأعراب ، كوالد الخنساء التيحانية ، تلك التي علقت شاباً من بني خفاجة يدعى جحوشا ، وقاست في حبها العارم ما أقض مضجعها ، وشرد نومها ، فكتمت أمرها عن صواحبها ، وبعثت إلى أبيها التيحان تقول في غير اكتراث :

وإن لنا بالشام لو نستطيعه ... حبيباً لنا « ياتيحان » مصافيا
نعد له الأيام من حب ذكره ... ونحصي له « ياتيحان » الليواليا
فليت المطايا قد رفعنك مصعداً ... تجوب بأيديها الحزون الفيافيا

وإذن فهي لا تكتفي بإزعاج والدها ، بل تتمنى أن يقود بنفسه مطاياه مصعداً إلى جنوب الشام ليكون رسولها الأمين إلى جحوش الحبيب ، والغرام جنون فاضح ، يولد الغرائب ، ويأتي بالمتناقضات ! !

أما الحالة الثانية : فلها من الظروف والملابسات ما يبررها لدى المنصف الأريب ، إذ تكون العاشقة ثيباً مطلقة ، فلا تؤاخذ على هيامها مؤاخذة غيرها من العذارى الناهدات ، بل يُلقى لها الحبل على الغارب ، ويسلم إلى كفها الزمام . أضف إلى ذلك ما غرب عنها من خفر الكواعب ، فقد ودعته إلى غير رجعة ، يوم أن انخرطت في سلك الزوجات ، ولديك أم الضحاك المحاربية فقد أمسكت عن الشعر الغزلي ، حتى طلقها زوجها ، واحتمل عنها إلى مكان نازح ، فهاج بها الشوق واندفعت تقول :

سألت المحبين الذين تحملوا ... تباريح هذا الحب في سالف الدهر
فقلت لهم ما يذهب الحب بعدما ... تبوأ ما بين الجوانح والصدر
فقالوا شفاء الحب حب يزيله ... على الفور أو نأي طويل على الهجر
وما الحب إلا سمع أذن ونظرة ... ورجفة قلب عن حديث وعن ذكر

وسينجب القارىء حين يجدها تكشف نقاب الحياء دفعة واحدة ، فتعبر عن الحقيقة المكظومة إذ تنشد :

شفاء الحب تقبيل وضم ... وجر بالبطون على البطون
ورهز تهمل العينان منه ... وأخذ بالمناكب والقرون

وفي رأيي أن النيرة أساس كل بلاء ، فلولا أن الشاعرة قد تضايقت كثيراً بتطليقها واقتران زوجها بغيرها ، لما رددت هذا القول الجريء . وإن شئت فانظر إلى ولادة بنت المستكفي وهي كما تعلم ، جرأة قول ، وتكبر نفس ، فقد ضرع أمام جمالها الفاتن الوزيران الأديبان ابن زيدون وابن عمار ، فهزأت بهذا حيناً ، وسخرت بذلك أحياناً ، ولكن لم تكد ترى أبا الوليد يداعب جاريتها « عتبة » حتى دبت عقارب الغيرة إلى قلبها ، وعلت وجهها سحابة قاتمة ، من الضجر والضيق ، فتركت كبرياءها وكتبت إلى عاشقها تقول :

لو كنت تنصف في الهوى ما بيننا ... لم تهو جاريتي ولم تتخير
وتركت غصناً مثمراً بجماله ... وجنحت للغصن الذي لم يثمر
ولقد علمت بأنني (بدر) الدجى ... لكن ولعت لشقوتي (بالمشتري)

فكيف إذن نلوم أم الضحاك وقد أبدت ولادة العظيمة ما أبدت من الغيرة والاندفاع . على أن للمحاربية الخاملة في باب النسيب ما يضعها في منزلة ولادة النابهة ، وما زلت أردد في إعجاب قولها الرائع :

حديث لو أن اللحم يشوى بحره ... طرياً أتى أصحابه وهو ينضج

ونعرج على الحالة الثالثة ، وهي كثيراً ما تتكرر أمامنا من حين إلى حين ، فقد تكون المرأة عاشقة صبة ، فتجاهد نفسها في إخفاء ما تكابده مجاهدة قاتلة ، ثم تمر الأعوام وراء الأعوام فإذا الشابة العاشقة تصير عجوزا شوهاء ، ذات أولاد وأحفاد ، وإذ ذاك لا تبالي بنقد ، أو تحفل بتجريح ، بل يطيب لها أن تجالس مع العذارى الناهدات ، قارئة تاريخ قلبها الحافل بالعجائب والغرائب ، دامعة على صباها الغارب ، وشبابها المرحوم ، ولا عليها في ذلك ما دام الجميع يتهمها بالهتر والتخريف ، وما دامت قريبة من القبر ، فهي هامة اليوم أو الغد ، وأي نقد يوجه إلى شمطاء شهربة ، تدب على العصا ، وتمشي بها مشي الأسير المكبل كعشرقة البدوية إذ تقول :

جريتُ مع العشاق في حلبة الهوى
ففقتهمو سبقاً وجئت على رسلي
فما لبس العشاق من حلل الهوى ... ولا خلعوا إلا الثياب التي أبلى
ولا شربوا كأساً من الحب حلوة ... ولا مُرة إلا شربتهمو قبلي

ومع ما في هذا القول من الصراحة التامة ، فإنه إذا قيس بشعر الرجل كان جميل الأثر ، طيب الوقع ؛ فنحن نرى الإباحيين من فساق الشعراء كامرىء القيس والفرزدق وبشار يطنبون في ذكرياتهم الماجنة ، إطناباً تنقبض له الصدور ، ولو أننا لا نريد

أن نشير هذا اللون من الإفك ، لذكرنا على سبيل الموازنة ما تحمله الوجوه ؛ غير أننا نضع أمام القارىء أبياتاً لابن أبي ربيعة قد تواضع في سردها ، فلم يملأها بما عُهد عنه من إفك ، وهي رغم ذلك من الإباحية في هوة لا ينحط إليها غزل الحرة ، مهما فحش ولذع . قال أبو الخطاب :

فتناولتها فقالت كغصن ... حركته ريح عليه فمارا
ثم كانت دون اللحاف لِشَعْو ... فٍ معنّى بها صبوب شعارا
واشتكت شده الإزار من البهـ ... ـر وألفت عنها لدىً الخمارا
حيّذا رجعها إليها يديها ... في يدى درعها تحل الازارا !

وإن شئت أن ترى للمرأة شيئا من طراز عمر المكشوف فارجع إلى ما هجّناه من غزل الجواري في صدر هذا المقال .

هذا وقد تكون الشاعرةُ مضطرة إلى التصريح بما يعجز عن بيانه اللفظ ويقف دونه الريق ، فتأتي بالمعنى الجلي ، في تركيب قوي ، دون أن يصدمها المسلك الوعر ، ويجهمُها الواقع المرير ؛ فقد راودَ توبةَ بن الحمير الخفاجي صاحبته ليلى الأخيلية فشاحت عنه ، وأرادت أن تفهمه موقفها النبيل ، فلم تستعص عليها قافية أو تند عنها عبارة ، بل أجابته في قوة أسر وبراعة نسج فهي تقول:

وذي حاجة قلنا له لا تبحْ بها ... فليس إليها ما حييت سبيلُ
إلينا صاحب لا ينبغي أن نخونه ... وأنت لأخرى صاحب وخليل
تخالك تهوى غيرها فكأنما ... لها في تظنيها عليك دليلُ

ولعمري قد بلغت من السمو والروعة شأواً لم يصل إليه معنُ بن أوس ، حين اصطدم بصخرة كصخرتها العاتية فقد كان في جاهليته ينشى أم مالك خليلته ، فأتت كعادتها إليه بعد إسلامه فقال من أبيات :

ولست كعهد الدار يا أم مالك ... ولكن أحاطت بالرقاب السلاسلُ
وعاد الفتى كالكهل ليس بفاعل ... سوى الحق شيئاً فاستراح العواذل

وشتان ما بين القولين وإن اتحدت الواقعة ، واتفق المراد !!

ولليلى هذه تراث جيدة في توبة وكانت تصلها بقليل من الغزل الرائق فتطرب النفوس في موقفها الحزين ، وأشهد لقد دلت على أن بنات حواء كأبناء آدم ، متانة تركيب ، وجلجلة لفظ وارتفاع مسلك ، ويهمنا أن نعرض نصيبها الدامع إذ تتولُ في معرض الرثاء :

هو المسك بالأرى الضحا كي شبته ... بدرياقة من خمر بيسان قرقف
فيا ألفَ ألفٍ يوم تأتي مسلّماً ... فألقاك مثل القسور المتطرف

وهناك من العاشقات غير ليلى مَن أبدعت كثيراً حين نهجت هذا النهج الجذاب ، وزادت فمعدت إلى الجناس الجميل إذ تقول:

كان مثل القضيب قداً ولكن ... قده صرف دهره أي قد

أو تقول :

هو الأبيض الريان لو ضربت به ... نواح من الريان زالت هضابها

وهكذا تكون الدموع مسرحاً للتشبيب البهيج ! !

ولا نختم هذا الفصل دون أن نلم بنموذج من الغزل الصوفي الذي ترنمت به المرأة فنشرت أمام العيون برودا قشيبة ، عطرة الذيول . وإذا صح ما يقولون من أن الحب الصوفي في مبدئه حب إنساني شبّ وترعرع حتى وصل إلى نهايته العلوية ، فالمرأة أشد قابلية له من الرجل ، لما تعلمه من تأثرها العميق ، وإحساسها الرقيق . ويكفي أن نستشهد برابعة العدوية رضي الله عنها فهي صاحبة اللواء الخفاق بين أخواتها المتصوفات ، ولها من النسيب الفاتن جداول صافية تبل الصدى وتنقعُ الغليل كأن تقول :

أحبك حبين حب الهوى ... وحبٌ لأنك أهلٌ لذاكا
فأما الذي هو حب الهوى ... فشغلي بذكرك عمن سواكا
وأما الذي أنتَ أهلٌ لهُ ... فكشفك لي الحجب حتى أراكا
فلا الحمدُ في ذا ولا ذاك لي ... ولكن لك الحمدُ في ذا وذاكا

ورابعة كما ينطق التاريخ قد سبقت الشعراء جميعاً إلى الغزل الالهي ففتحت بذلك الطريق لابن عربي وابن الفارض والبرعي ومن يجري معهم في ميدان التصوف الوسيع ، ولا أدري كيف سكت محللو الشعر القدسي فلم يسجلوا يدها البيضاء ! !

(وبعد) فهذه مرآة لامعة تجلو لنا طرائف من الغزل النسوي ونحن حين نرفعها إلى القراء والقارئات نتساءل في عجب : أيه بد بين شاعراتنا الآن من لها — ولو في غير الغزل — هذه الديباجة الشرقة ، والرقة المتسلسلة ؟ أم أن ذلك عهد مضى ولن يعود ؟ !

(الكرم الجديد)

محمد رجب البيومي